مشروع إنتاج العلوم الإنسانية الإسلامية - قراءة في فكر الإمام الخميني قدس سره -

السيد مهدي الموسوي[1]

مدخل:

يعدّ الإمام الخميني قدس سره واحداً من المصلحين الاجتماعيين الكبار والمعدودين، حيث كان شديد الاهتمام بالأحداث السياسية والاجتماعية في المجتمع، إلى جانب التأسيس الفكري والعلمي للمجتمع والسياسة. ولذلك نرى في آثاره المكتوبة والشفاهية الموجودة بين أيدينا، تأكيداً دائماً على مقولة «**إنتاج العلم**» والجهاد العلمي والفكري لأسلمة العلوم، واستقلال المجتمع الإسلامي، ووصوله إلى مرحلة الاكتفاء الذاتي.

وصحيح أنّ قيادته وزعامته سواء أكانت في مرحلة النضال قبيل انتصار الثورة أم بعد استقرار نظام الجمهورية الإسلامية، كانت قد واجهت أزمات وأحداث ثورية هامّة، ونزاعات داخلية، وأزمات داخلية وخارجية صغيرة وكبيرة؛ إلا أنّ ذلك لم يؤدّي إلى غفلة الإمام الخميني قدس سره عن مقولات العلم والمعرفة، وإنتاج العلوم الإسلامية. ولذلك تعرّض الإمام قدس سره في مناسبات مختلفة؛ علمية، وتدريسية، ونضالية، وثورية، وقيادية، وفي آثاره المكتوبة، وفي كلماته وتصريحاته، إلى أبحاث ومصطلحات هامّة يمكنها

(١) باحث من الحوزة العلمية، من إيران.

أن تقدّم أنموذجاً يحتذى به في إنتاج العلوم الإنسانية الإسلامية.

وتهدف هذه المقالة إلى تقديم عرض وتحليل إجمالي للأسس النظرية لإنتاج العلوم الإنسانية من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره. وذلك في أربعة أقسام هي:

الأوّل: الاختزالية، آفة العلوم الموجودة من وجهة نظر الإمام قدس سره.

الثاني: جذور الاختزالية في العلوم الموجودة من وجهة نظر الإمام قدس سره.

الثالث: مبادئ العلوم الإنسانية الإسلامية.

الرابع: تصنيف العلوم من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره.

أوّلاً: الاختزالية، آفة العلوم الموجودة:

يرى الإمام الخميني قدس سره من خلال تشخيصه للآفات الأساسية في هذا المجال أنّ الاختزالية[1] في العلم، هي الآفّة الأساسية للعلوم الموجودة؛ ويعتقد أنّ الكثير من مشاكل المجتمعات المعاصرة تنشأ من النظرة الأحادية في العلم والمعرفة. والاختزالية واحدة من الأخطاء المنهجية الأساسية في الدراسات وفي الأفكار بشكل عامّ، والسبب في ذلك أنّها تمنع وجود رؤية عامّة وشاملة للمسألة، وتختصر الأبعاد والجوانب المتعدّدة للظاهرة ببعد وجانب خاصّ، فيتمّ فيها الالتفات إلى بعد واحد والغفلة عن الأبعاد الأخرى، أو إرجاع كلّيّة الظاهرة إلى مجموعة عناصرها[2]. ويعتبر الإمام الخميني قدس سره أنّ هذا الخطأ المعرفي والمنهجي قد دخل العلوم الجديدة في الغرب، وكذلك أُصِيبَ به أصحاب الاتجاه الواحد في محاولاتهم قراءة الإسلام.

(1) Reductionism.

(٢) قراملكي، أحد فرامرز: مناهج البحث في الدراسات الدينية، ط١، مشهد المقدّسة، انتشارات العلوم الإسلامية الرضوية، ١٣٨٠هـ. ق؛ سياري، سيده؛ قراملكي، أحد فرامرز: أبعاد الاختزالية وجوانبها في التحقيق الديني، فصلية «انديشه نوين ديني»العلمية – التحقيقية، العام الثالث، العدد الثامن، ربيع١٣٨٦هـ. ش، ص٥٣-٣٣.

١ - الاختزالية في العلوم الحديثة في الغرب:

إنّ الرؤية الكونية الماديّة وأصالة الطبيعة في الغرب، من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره تجعل المفكّر ينظر إلى الإنسان على أنّه ليس سوى تلك الطبيعة المعقّدة، حيث إنّ العلم الحديث، وباعتبار انحصار المنهج المعرفي فيه بالحسّ، قد اتّخذ عدم الوجدان دليلاً على عدم الوجود، وأنكر كلّ ما لا يمكن مشاهدته واعتباره بالحسّ؛ وبذلك فقد تنزّل بالوجود إلى الطبيعة، واختزل الإنسان بالجسم والبدن، فأصبحت الطبيعة موضوع العلم، وغفل عن ما وراء الطبيعة، وبدأ البحث عن وجود الشيء أو الظاهرة في طبيعتها المادّية؛ لذلك ظنّ أنّ الإنسان هو مجرّد هذا الجلد والعظم والبدن المُلكي والإدراكات الحسية والخيالية، وغفل عن حقيقته وكنهه. ومن هنا، كان همّه وعزمه منحصر في المقاصد المُلكية، وتدبير البطن والفرج، وبما أنّه غافل عن نفسه، محجوب عنها، غفل عن مقاصده الإنسانية، ولم يتحرّك في سبيلها. نعم فالذي لم يجد من نفسه إلا الحياة الحيوانية، فلن يتعاطى بشيء آخر سوى المقصد الحيواني[١].

وعلى هذا الأساس يتمّ النظر في العلوم الموجودة إلى طبيعة الأشياء، نظرة استقلالية، وكلّ مرتبة يُتوصَّل إليها عبر العلم، لن تكون سوى العلم الطبيعي. وبالتالي لا يمكننا وفق رؤية كهذه من إقامة علاقة مع سائر أبعاد الإنسان وشؤونه[٢].

ونتيجة لهذا النوع من العلم، تظهر في المجتمع ثلاث مواجهات مع الدين على الأقلّ:

- رفض الإله، ورفض الدين[٣]: هؤلاء الأشخاص يعتبرون الدين أفيون الشعوب، وأنّ وجوده مخدِّر للمجتمع. وذلك كما يعتقد الماركسيون،

(١) الخميني، روح الله: شرح حديث جنود العقل والجهل، طهران، مؤسسة تنظيم وشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٧هـ. ق، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) الخميني، روح الله: صحيفة الإمام، طهران، مؤسسة تنظيم نشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٨٥هـ. ش، ج٨، ص٤٣٣.

(٣) م.ن، ج٢١، ص٢٢٠.

أو الذي يظهرونه على أنّه فاقد للمعنى، كما يحلو لأصحاب الاتّجاه الوضعي.

ب- إبعاد الدين عن ساحة الحياة والمجتمع، واعتباره أمراً شخصياً[١].

ج- تكذيب أمور ما فوق الطبيعة؛ كالله، والملائكة، وعالم الغيب، وتفسير كافّة الأشياء والمعارف الدينية بالأمور المادّية والاجتماعية[٢].

٢- الاختزالية، في القراءات الإسلامية الموجودة:

يرى الإمام الخميني قدس سره أنّ الكثير من المفكّرين المسلمين لم يكونوا بعيدين عن آفّة الاختزالية، حيث نَزَّلوا الإسلام إلى ميولهم وعلومهم وتخصّصاتهم، وعلى أساس ذلك اشتغلوا بتفسير آيات القرآن الكريم ومعارف الإسلام وتأويلهما، ورفضوا الأفكار الأخرى من خلال تذرّعهم بأدلّة متنوّعة. وقد قدّم الإمام الخميني قدس سره، ومن خلال رؤيته للعلم في الحضارة الإسلامية وما يعانيه من آفات، نماذج كثيرة من هذه التحويلية[٣]. مثال ذلك: أنّ العرفاء أوَّلُوا كافّة المعارف الإسلامية وربطوها بالبعد المعنوي والأخروي، وغفلوا عن سائر الشؤون الاجتماعية والحياة الدنيوية، واتّهموا أهل الفقه والشريعة بالقشرية. ومن جهة أخرى: كَذَّب بعض الفقهاء كافّة الأمور المعنوية، وحصروا الدين بالأعمال والسلوك الظاهري للفقه والشريعة[٤].

وقد تحدّث الإمام قدس سره عن هذا الخطأ، فاعتبره فاجعة للإسلام والإنسان: «**هناك فاجعة قد حلّت بالإسلام من البداية إلى اليوم، وهي أنّهم لم يعرفوا الإسلام. فالذين بحثوا في الإسلام، لم يعرفوا الإسلام بجميع أبعاده سواء في السابق أم في اللاحق. كلّ شخص كان قد توجَّه**

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م. س، ج١٠، ص٤٦١.
(٢) م.ن، ج٣، ص٢٢١-٢٢٢.
(٣) الخميني، روح الله: شرح الأربعون حديثاً، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٦هـ. ق، ح٢٤، ص٣٩٠.
(٤) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٣، ص٢١٩-٢٢٠؛ ج٤، ص٦-١١.

لبعد من أبعاد الإسلام، وأَرْجعوا كافّة المطالب الموجودة في الإسلام والقرآن الكريم إلى المعنى الذي أدركوه أنفسهم. في السابق – في القرون السابقة - كانت مجموعة من المتكلّمين، يوجّهون الإسلام بناءً على فهمهم الكلامي، استناداً إلى فهمهم وإدراكهم. وكانت مجموعة من الفلاسفة تعتمد على الفلسفة التي تدركها، لتقوم بتفسير الإسلام على صورة إدراك فلسفي. فكانوا يتصوّرونه مذهباً فلسفياً. وهناك مجموعة من العرفاء الذين فسّروا الإسلام بأسلوب عرفاني، واعتبروه مذهباً عرفانياً. واستمرّ هذا الحال حتى العصور المتأخّرة»[١].

ويترّتب على هذا التحديد الآثار التالية:

أ- غربة الدين ومظلوميّته، وعدم وجود معرفة جامعة للدين، وبالتالي تعطيل الكثير من المعارف الإسلامية[٢].

ب- عدم ظهور الأبعاد المختلفة الهامّة للدين؛ على مستوى سعادة الإنسان وهدايته.

ج- الغفلة عن الأبعاد السياسية للإسلام، والفصل بين الدين والسياسة؛ بسبب الإدراك الفردي أو العرفاني للدين[٣].

«كانت كلّ طائفة تدرس الإسلام انطلاقاً من إدراكها وعلمها، وتُرْجع كلّ الآيات وأخبار الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام إلى وجهة نظرها، وتعيد كلّ الأوراق إلى تلك الورقة التي أدركتها. لذلك لا يوجد فيها أيّ شيء عن هذا البعد الموجود في الإسلام؛ بعده الدنيوي والحكومي. كلّ تلك المواضيع فلسفية وعرفانية؛ أمّا ما هو تكليف الناس الذين يعيشون اليوم، وكيف تكون الحكومة الإسلامية، وكيف يجب أن يتعاطى الناس مع الطبيعة، فلا يوجد شيء من ذلك من كلامهم»[٤].

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٤، ص٦.
(٢) م. ن، ج٣، ص٢٢٥.
(٣) م.ن، ج٣، ص٢٢٧؛ ج١٠، ص٤٥٩.
(٤) م.ن، ج٤، ص٧.

ثانياً: جذور الاختزالية في العلوم من وجهة نظر الإمام قدس سره:

ذكر الإمام قدس سره أربعة أسباب هامّة على الأقلّ لوجود هذه الآفة الكبيرة:

١- الاستئناس والتعلّق بفرع علمي خاصّ، والغفلة عن سائر الفروع:

يعتقد الإمام قدس سره أنّ الإنسان عندما يشتغل بعلم خاصّ ينحصر اهتمامه به، فينشغل قلبه به، فلا يهتمّ بالأمور الأخرى؛ «**لذلك فهو لا يدرك الأشياء التي تخالفه من الأساس، ويُرجع كافّة هذه الأمور إلى تلك المطالب المسلَّمة لديه. وعندما يقع ذلك يصبح لا يدرك سوى عالم المادّة هذا، ويصير إدراكه ناقصاً، ولا يقوى على الفهم. فهؤلاء لا يدركون ما هذه الأمور؛ لأنّ إدراكهم ناقص**»[١].

٢- التوجّه الحصري في المنهج، وتحديد أدوات المعرفة بواحدة خاصّة:

يعتبر الإمام قدس سره أنّ حصر أدوات المعرفة بأداة خاصّة، يؤدّي إلى الغفلة عن سائر الأدوات والمصادر المعرفية: «**المادّيون يعتبرون «الحسّ»** معيار المعرفة في رؤيتهم الكونية، ويخرجون من العلم ما ليس محسوساً، ويعتبرون الوجود مرادفاً للمادّة، وما لا مادّة له لا وجود له. ما لا شكّ فيه أنّهم يعتبرون عالم الغيب؛ كوجود الله تعالى، والوحي، والنبوة، والقيامة، أمراً أسطورياً. مع العلم أنّ معيار المعرفة في الرؤية الكونية الإلهية أعمّ من «**الحسّ والعقل**»، فما هو معقول يدخل في إطار العلم، حتى لو لم يكن محسوساً. لذلك فالوجود أعمّ من الغيب والشهادة، وهو موجود حتى لو لم يكن له مادّة. فكما أنّ الموجود المادّي يعتمد على المجرّد، كذلك المعرفة الحسية تعتمد على المعرفة العقلية[٢].

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٣، ص٢٢٤.
(٢) م.ن، ج٢١، ص٢٢١.

٣- عدم معرفة الإسلام معرفة كاملة وجامعة:

يعتبر الإمام قدس سره أنّ عدم الفهم والتدبّر الصحيح في علوم الأنبياء عليهم السلام والأولياء الإلهيين عليهم السلام، وعدم الاهتمام بالرسالة الأساسية لدين الإسلام المبين، يؤدّي بكلّ طائفة إلى تفسير الإسلام طبق علومها. وبالتالي الإحساس بالاستغناء عن العلوم الأخرى. مع العلم أنّ الإسلام أظهر اهتماماً بكافّة شؤون الإنسان؛ من أدنى المراتب، إلى أعلاها؛ لذلك كانت الأحكام السياسية، والأحكام المعنوية؛ لأجل الرشد المعنوي للإنسان، وكانت الأحكام الأخلاقية؛ لأجل التربية الأخلاقية. وبتعبير آخر: إنّ أحكامه بدأت قبل أن يكون هناك ولادة وتستمرّ إلى الموت، وإلى القبر، وما بعد القبر.

«**الإسلام حقيقة يهتمّ بكامل أبعاد الإنسان، سواء الأبعاد المادّية أم المعنوية حتى يصل الأمر إلى ما له علاقة بالوهم**»[١]. لذلك كانت المعارف فيه متعدّدة الأبعاد، ومتعدّدة التوجّهات، والسبب في ذلك أنّ: «**الإسلام يمتلك برنامجاً وخطّة للإنسان الذي هو كلّ شيء؛ أيّ أنّ له مراتب تبدأ من الطبيعة، إلى ما وراء الطبيعة وإلى عالم الألوهية. فالإسلام يريد أن يصنع إنساناً جامعاً؛ أي أن يعطيه الرشد كما هو عليه. فإذا كان له نصيب من الطبيعة؛ أن يعطيه رشداً طبيعياً، وإذا كان له نصيب من البرزخية؛ أن يعطيه رشداً برزخياً، وإذا كان له نصيب من الروحانية؛ أن يعطيه رشداً روحانياً، وإذا كان له نصيب من العقلانية؛ أن يعطيه رشداً عقلانياً، وإذا كان له نصيب إلهي؛ أن يعطيه رشداً إلهياً**»[٢].

لذلك لا ينبغي تحديد المعرفة بفرع علمي خاصّ[٣]. وبعبارة أخرى: إنّ معرفة جامعية الدين هذه بالنسبة لجميع أبعاد الإنسان وشؤونه، ليست

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج١٢، ص٥٠٣.
(٢) م.ن، ج٤، ص٩.
(٣) م.ن، ج٤، ص١١.

وظيفة عمل فرع خاصّ. وقد رفض الإمام قدس سره إطلاق عبارة العارف بالإسلام على فرع خاصّ، ويعتقد بأنّ «**العارف بالإسلام هو الشخص العارف بهذين المطلبين، وهاتين الجبهتين، الذي يعرف الجبهة المعنوية والجبهة الظاهرية؛ أي أن يعرف الإسلام بجهاته المعنوية، وأن يعرفه بجهاته المادّية أيضاً. ... فالشخص الذي يعرف هذين البعدين بمقدار الفهم الإنساني، هو العارف بالإسلام**»[١].

٤- عدم معرفة الإنسان بشكل صحيح:

يعتقد الإمام الخميني قدس سره أنّ نظرة عميقة يمكنها أن توضّح مكامن المشكلة الأساسية للعلوم الغربية وحتى العلوم الإسلامية، والتي تتضح في عدم المواجهة الصحيحة للإنسان، وعدم فهم أبعاده الوجودية وشؤونه: «**الذين يَدّعون ويقولون أنّنا عرفنا العالم، وعرفنا أعيان العالم، هؤلاء قد شاهدوا ورقة رقيقة صغيرة من العالم واقتنعوا بها. والذين يقولون إنّنا عرفنا الإنسان، فهؤلاء قد عرفوا شبحاً من الإنسان - وهو ليس إنساناً، بل شبحاً من حيوانية الإنسان - فظنّوا أنّ الإنسان هو هذا الموجود. والذين يَدّعون أنّنا عارفون بالإسلام؛ هؤلاء قد شاهدوا مرتبة نازلة من الإسلام، واقتنعوا بها، وظنّوا أنّهم عرفوا الإسلام... إنهم عرفوا الإنسان بمراتبه النازلة، ومرتبة الطبيعة هي أدنى مراتبه؛ إلا أنّها مرتبة محسوسة لنا. وبما أنّ ذاك الشيء محسوس لنا، ونحن الطبيعيون والموجودون الآن في عالم الطبيعة، فقد يشبعنا هذا المحسوس تارة. فالآن لا وجود للمعنوية، والموجود هو المحسوسات**»[٢].

بناءً على ما تقدّم، يجب الوصول إلى مرتبة معرفة الإنسان بشكل جامع ومتقن؛ إذا أردنا التأسيس للعلوم الإنسانية الإسلامية، حيث

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٨، ص١٩٠.
(٢) م. ن، ص٤٣٤.

ينبغي التوجّه إلى كافّة أبعاد الإنسان وشؤونه؛ لأنّ جذور أبحاث المعرفة الإسلامية والمعرفة العلمية من وجهة نظر الإمام قدس سره يجب البحث عنها في معرفة الإنسان.

ثالثاً: مبادئ العلوم الإنسانية الإسلامية:

يعتقد الإمام الخميني قدس سره أنّ الإنسان موجود معقّد؛ لأنّ الإنسان موجود جامع يمتلك كافّة المراتب الوجودية؛ أعمّ من العقلية، والمثالية، والحسّيّة. وقد انطوت عوالم الغيب والشهادة في وجوده. ويرى الإمام الخميني قدس سره في كتابه «**سرّ الصلاة**»: أنّ للإنسان مقامين بأحد الاعتبارات؛ أحدهما: الشهادة. والآخر: الغيب. وله ثلاثة مقامات باعتبار آخر؛ الأوّل: المُلك، الثاني: البرزخ، الثالث: العقل. وبعبارة أخرى له مقام تعيّنات المظاهر، ومقام المشيئة المطلقة، أو برزخ البرازخ، أو مقام العماء، ومقام أحدية جمع الأسماء. وللإنسان باعتبار ثالث أربعة مقامات: الملك، والملكوت، والجبروت، واللاهوت. وباعتبار آخر له خمسة مقامات: الشهادة المطلقة، والغيب المطلق، والشهادة المضافة، والغيب المضاف، ومقام الكون الجامع، وتتطابق هذه المقامات مع الحضرات الخمس المتداولة على لسان العرفاء. وللإنسان باعتبار آخر سبعة مقامات وهي المشهورة بمدن العشق السبعة وأقاليم الوجود السبعة الرائجة على لسان العرفاء. وله باعتبار تفصيلي مائة منزل أو ألف منزل[1]. لقد أراد الإمام الخميني قدس سره في هذا الكلام أن يشير إلى مقامات الإنسان ودرجاته، وأنّ للإنسان ماهيةً ووجوداً معقّداً.

بناءً على ما تقدّم، يعتقد الإمام قدس سره أنّ للإنسان شؤوناً ومراتب متعدّدة، حيث له بشكل عامّ ثلاث نشآت، وهو صاحب ثلاثة مقامات وعوالم:

(١) الخميني، روح الله: سر الصلاة، طهران، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني قدس سره، ١٣٧٥هـ. ق، ص٤.

١. نشأة الآخرة وعالم الغيب ومقام الروحانية والعقل.
٢. نشأة البرزخ والعالم المتوسّط بين العالمين ومقام الخيال.
٣. نشأة الدنيا ومقام الملك وعالم الشهادة[١].

ويشترك الإنسان في مرتبة الدنيا والحسّ في بعض الأمور مع النباتات والحيوانات، إلا أنّه لا يمكن اختصار الإنسان بهذه المرتبة، بل له مراتب أعلى من المرتبة الحيوانية. له المرتبة المثالية ويتمتّع بالتجرّد الباطني بواسطة التعقّل[٢].

ومن وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره فإنّ كلّ عالم الوجود؛ من مبدأ الخير، إلى نهاية العالم، هو وجود واحد. ومن هنا، فمرحلة الطبيعة لها نصيب نازل جدّاً بالمقارنة مع المرتبة الأعلى. وهذا يعني أنّ العلوم الطبيعية في مقابل العلوم الإلهية، في مرتبة نازلة جداً؛ لأنّ موضوعها مرتبة رقيقة من الحقائق العليا.

بناءً على ما تقدّم، وعلى أساس معرفة الإنسان الجامع، قد اختفى معنى آخر في الصورة المادّية للطبيعة، بحيث لا يمكن من دون ذلك امتلاك علم تامّ وكامل؛ لأنّ معرفة هذه الطبيعة تؤدّي إلى معرفتنا بجزء من الحقيقة. وبالتالي نغفل عن سائر شؤونها وأبعادها، فما دمنا نهتمّ بالوجه الطبيعي المادّي بشكل مستقل؛ فإنّ الذي يحصل لدينا، شبح عن الحقيقة[٣].

بل، كان ينبغي رفض النظر الاستقلالي للطبيعة، فننظر إلى الطبيعة باعتبار أنّها بداية الواقع؛ أي أن ننظر إلى الطبيعة بالالتفات إلى كافّة مراتب الوجود وشؤونه. فالطبيعة والعلوم الطبيعية في هذه الرؤية هي الورقة النازلة من كافّة أوراق عالم الوجود[٤]. ويعتقد الإمام الخميني قدس سره أنّ تعاليم الأنبياء عليهم السلام والأولياء العظام عليهم السلام ودين الإسلام، هي التي تنظر إلى كافّة

(١) الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص٣٨٦.
(٢) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٣، ص٢٢٤.
(٣) م. ن، ج٨، ص٤٣٤.
(٤) م. ن.

شؤون الإنسان ومراتبه الوجودية، حيث قدّمت برنامجاً لكافّة أموره. ويشير قدس سره إلى نقص المعارف الإنسانية الحدثية والمعارف الإسلامية الاختزالية، ويعتبر أنّ الذين يمكنهم معرفة الإنسان هم الملهمون بالإلهام الإلهي: «**إنّ الذين يدّعون معرفة الإنسان ومعرفة الإسلام، هم يدّعون! متى يعرفون الإنسان، ومتى يعرفون الإسلام؟**

وعندما يعرف الإنسان حجاباً، ورقة مختصرة من الإنسان، وورقة مختصرة من الإسلام، يخيَّل إليه أنّه عرف الإنسان وعرف الإسلام. فلا يوجد شخص يعرف الإنسان بمعناه الحقيقي سوى ذات الحقّ المقدّسة والملهمون بإلهامه»[1].

يعتقد الإمام الخميني قدس سره أنّ الإنسان هو موضوع علم كافّة الأنبياء عليهم السلام. وقد خاطب أساتذة الجامعة قائلاً: «**الإنسان هو موضوع بحث كافّة الأنبياء عليهم السلام، وموضوع تربيتهم. لقد جاءوا لتربية الإنسان. جاءوا لنقل هذا الموجود الطبيعي من مرتبة الطبيعة إلى المرتبة العالية، إلى ما فوق الطبيعة، وما فوق الجبروت. وتركّز بحث الأنبياء عليهم السلام بأكمله عن الإنسان. من البداية، كان كلّ إنسان وكلّ نبي أُرْسل، فقد أُرْسل لأجل الإنسان، ولأجل تربية الإنسان**»[2]. ويعتبر قدس سره أنّ الهدف والمقصد لتعاليم الأنبياء عليهم السلام هو صناعة الإنسان: «**جاء الأنبياء عليهم السلام لإيقاظنا، ولتربيتنا. هم جاءوا لأجل الإنسان، ولأجل صناعة الإنسان. وكتب الأنبياء عليهم السلام هي كتب صناعة الإنسان. فالقرآن الكريم هو كتاب صناعة الإنسان. والإنسان هو موضوع علم الأنبياء عليهم السلام. وكلّ ما هو موجود فهو يخاطب الإنسان. فالإنسان مصدر كافّة الخيرات، وإذا لم يصبح إنساناً، كان مصدر كافّة الظلمات، وإذا وُجِدَ على مفترق طرق كان أحد هذه الطرق؛ طريق الإنسان، والآخر؛ هو طريق الانحراف عن الإنسانية...**

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ص٣٢٦.
(٢) م.ن، ج٣، ص٢٣٠.

... على كلّ الأحوال، إنّ الإسلام يمتلك كافّة هذه المعاني، وهو جامع لجميع الجهات المادّية، والمعنوية، والغيبية، والظاهرية؛ وذلك لأنّ الإنسان ذو مراتب. والقرآن هو كتاب صناعة الإنسان؛ وبما أنّ الإنسان يمتلك كافّة المراتب بالقوّة، فقد جاء كتاب الله ليجعل من الإنسان إنساناً. وكما يمكنه أن يصلح مجتمعه يمكنه أيضاً أن يصلح نفسه؛ ليصل إلى المرتبة العالية. ولا ينبغي أن تتعرّض هذه الطائفة لتلك، وتلك لهذه»[1].

بناءً على هذه الرؤية، فلا يوجد لدينا علوماً إسلامية وعلوماً غير إسلامية. ولا ينقسم العلم من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره إلى إسلامي وغير إسلامي. يقول الإمام قدس سره في رفض الاختزالية في العلوم الإسلامية، حيث أيّد هذا الأمر: «**يظنّ البعض أنّ الذين يريدون إصلاح الجامعات ويريدون أن تكون الجامعات إسلامية...، إنّهم يتوهّمون أنّ العلوم على قسمين؛ كلّ علم قسمين، علم الهندسة؛ أحده إسلامي والآخر غير إسلامي. وعلم الفيزياء؛ أحده إسلامي والآخر غير إسلامي.**

اعترضوا من هذه الناحية بأنّ العلم ليس فيه إسلامي وغير إسلامي، وتوهّم البعض أنّ هؤلاء يقولون إنّ الجامعات يجب أن تكون إسلامية؛ أي أن يكون فيها علم الفقه والتفسير والأصول فقط... وهذا خطأ يرتكبه البعض، أو أنّهم يجعلون أنفسهم على خطأ عمداً... نقول: إنّ الجامعات يجب أن تتغيّر من الجذور، ويجب أن يجري فيها تغيير أساس وإسلامي، وليس المقصود تدريس العلوم الإسلامية فيها فقط، وليس صحيحاً أنّ العلوم على قسمين، وأنّ لكلّ علم قسمين؛ قسم إسلامي والآخر غير إسلامي... نحن نقول إنّه منذ خمسين سنة أو أكثر... إذا وَجَدَ شبابنا علماً، فإنّهم لم يحصلوا على التربية»[2].

(١) انظر: الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج٣، ص٢٣٠-٢٣١.
(٢) م. ن، ج١٢، ص٢٤٨.

إنّ فكرة عدم تقسيم العلوم إلى إسلامي وغير إسلامي عند الإمام قدس سره تعود جذورها إلى ماهية العلم ومقصده. وفي هذا الصدد يقول الإمام قدس سره: «**ينبغي أن يكون الفرق بين الجامعات الغربية والجامعات الإسلامية في ذاك الطرح الذي عرضه الإسلام للجامعات. الجامعات الغربية - مهما وصلت إلى مراتب - يمكنها إدراك الطبيعة. إنّ الطبيعة لا تقدّم المعنويات. وإنّ الإسلام لا ينظر للعلوم الطبيعية نظرة استقلالية. فكافّة العلوم الطبيعية- مهما وصلت إليه من مراتب - ليست الشيء الذي أراده الإسلام؛ لأنّ الإسلام لا يجعل الطبيعة متقدّمة على مستوى الواقع؛ بل يأخذ الجميع نحو الوحدة والتوحيد.**

إنّ كافّة العلوم التي تذكرونها وما تتحدّثون عنه في الجامعات الغربية؛ كلّ ذلك ورقة واحدة من العالم؛ وهي ورقة دانية من كافّة الأوراق»[١].

بناءً على ما تقدّم، فكافّة العلوم من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره يمكنها أن تكون إسلامية، إذا كان مقصدها وكانت جهتها صحيحة؛ أي أن يكون المقصد هو التوحيد: «**إنّ كافّة العلوم سواء العلوم الطبيعية أم العلوم غير الطبيعية التي يريدها الإسلام، هو أن يكون مقصدها العلم الإلهي والتوحيد**»[٢].

طبعاً، هذه المسألة لا تعني النظر إلى كلام الإمام قدس سره نظرة سطحية واعتبارها ليست مؤيِّدة لكافّة العلوم الشرقية والغربية، وقد ظنّ البعض ذلك[٣]. بل قد وصل الإمام قدس سره إلى تصنيف مختلف للعلوم من خلال هذا المبنى الأساس، فإذا أريد للعلم أن يكون نافعاً للبشر، وأريد له أن يكون ذا قيمة ينبغي أن يذكر في ذاك التصنيف؛ فمن وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره: «**ينبغي أن يحصل تغيير أساس في الجامعات ويجب**

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م. س، ج٨، ص٤٣٣.
(٢) م.ن، ص٤٣٥.
(٣) صادق زاده قمصري، فاطمة: قيمة العلم ووجهة العلوم من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره، فصلية مصباح، العام١١، العدد٤١، ص٦٢.

أن تُبنى من جديد، بحيث يمكنها تربية شبابنا بناءً على التربية الإسلامية»[١]. وأمام تصنيف العلم بناءً على معرفة الإنسان، تصبح الاختزالية الغربية غير ممكنة، بل تحتاج إلى تصنيف يقوم على معرفة الإنسان طبق الرؤية الإسلامية.

رابعاً: تصنيف العلوم من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره:

قدّم الإمام الخميني قدس سره أبحاثاً قيّمة ذيل الحديث الرابع والعشرين من كتاب الأربعون حديثاً، حيث جاء عن الرسول صلى الله عليه وآله تقسيم العلوم إلى ثلاثة أقسام: آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنّة قائمة.

وطرح الإمام قدس سره تصنيفاً للعلوم يختلف عمّا قدّمه الآخرون؛ باعتبار أنّ الإنسان صاحب نشآت، وهو صاحب مقامات ثلاثة وعوالم ثلاثة، وهي عبارة عن:

١. نشأة الآخرة وعالم الغيب ومقام الروحانية والعقل.
٢. نشأة البرزخ والعالم المتوسّط بين العالمين ومقام الخيال.
٣. نشأة الدنيا ومقام الملك وعالم الشهادة.

هذا التصنيف يمكنه أن يكون أنموذجاً يُحتذى به في التأسيس للعلوم الإنسانية الإسلامية[٢].

ويعتقد الإمام قدس سره أنّ لكلّ واحد من هذه المقامات، كمال خاصّ، وتربية خاصّة، وعمل يناسب نشأته ومقامه، ويناسب الأنبياء عليهم السلام، ويتكفّل قواعد تلك الأعمال، ثمّ يصل إلى نتيجة مفادها: أنّ كافّة العلوم النافعة تنقسم إلى هذه العلوم الثلاثة؛ أي العلم الذي يتعلّق بالكمالات العقلية والوظائف الروحانيّة، والعلم الذي يتعلّق بالأعمال القلبيّة ووظائفها، والعلم الذي يتعلّق بالأعمال القالبيّة ووظائف النشأة الظاهرة للنفس[٣].

(١) الخميني، صحيفة الإمام، م.س، ج١٢، ص٢٥٠.
(٢) انظر: الخميني، الأربعون حديثاً، م.س، ص٣٨٦-٣٩٧.
(٣) م. ن، ص٣٨٦.

لذلك يمكن إدراج كافّة العلوم المفيدة للإنسان في هذه المجموعات الثلاث.

١- العلوم المتعلّقة بالنشأة الأولى عبارة عن: العلم بذات الحقّ المقدّسة، ومعرفة أوصاف الجمال والجلال، والعلم بالعوالم الغيبيّة؛ من قبيل: الملائكة وأصنافها، من أعلى مراتب الجبروت والملكوت الأعلى، إلى الملائكة الأرضية، وجنود الحقّ، والعلم بالأنبياء عليهم السلام، والأولياء عليهم السلام، والمقامات ومدارجها، والعلم بالكتب الإلهية وكيفية نزول الوحي وتنزّل الملائكة والروح، والعلم بالنشأة الآخرة، وكيفية رجوع الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالمي البرزخ والقيامة وتفاصيلهما. وبالجملة، العلم بمبدأ الوجود وحقيقته ومراتبه، وبسطها، وقبضها، وظهورها، ورجوعها. ويتكفّل بهذا العلم بعد الأنبياء عليهم السلام والأولياء عليهم السلام، الفلاسفة والأعاظم من الحكماء وأصحاب المعرفة والعرفان.

٢- العلوم المتعلّقة بالنشأة الثانية عبارة عن: العلم بالمنجيات والمهلكات الخلقية؛ أي العلم بمحاسن الأخلاق؛ كالصبر، والشكر، والحياء، والتواضع، والرضا، والشجاعة، والسخاء، والزهد، والورع، والتقوى، والمحاسن الأخلاقية الأخرى، والعلم بكيفية تحصيلها، وأسباب حصولها ومبادئها وشروطها، والعلم بقبائح الأخلاق؛ من قبيل: الحسد، والكبر، والرياء، والحقد، والغش، وحبّ الرئاسة والجاه، وحبّ الدنيا والنفس، وغير ذلك، والعلم بوجودها، والعلم بكيفية التنزّه عنها. ويتكفّل بهذه العلوم بعد الأنبياء عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام، علماء الأخلاق وأصحاب الرياضات والمعارف.

٣- العلوم المتعلّقة بالنشأة الثالثة عبارة عن: علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب العشرة وتدبير المنزل، وسياسة المدن، ويتكفّل بهذه العلوم علماء الظاهر والفقهاء والمحدّثين، بعد الأنبياء عليهم السلام والأوصياء عليهم السلام.

بعد هذا التقسيم يوضّح قدس سره: إذن، أصبح معلوماً أنّ العلوم الإسلامية

محصورة بهذه الأقسام الثلاثة؛ بناءً على حاجات البشر ومقامات الإنسان الثلاثة. وبعد أن اتّضح أنّ هذه العلوم التي ذكرها الرسول ﷺ هي هذه الفروع الثلاث، ينبغي البحث عن هذه العناوين الثلاثة، وعلى أيّ العلوم تنطبق. يعتقد الإمام الخميني قدس سره أنّ «الآية المحكمة» عبارة عن: العلوم العقلية والعقائد الحقّة والمعارف الإلهية، و«الفريضة العادلة» عبارة عن: علم الأخلاق وتصفية القلوب، و«السنّة القائمة» عبارة عن: علم الظاهر وعلوم الآداب القالبية.

ويعتبر الإمام الخميني قدس سره أنّ العلوم الأخرى داخلة في أحد الأقسام الثلاثة المذكورة. مثال ذلك: أنّ علم الطبّ، والتشريح، والنجوم، والهيئة إذا نظرنا إليه نظرة الآية والعلامة، وعلم التاريخ وأمثاله إذا رجعنا إليه بهدف العبرة، كلّها داخلة في «**الآية المحكمة**»، حيث يحصل من خلالها العلم بالله، أو العلم بالمعاد، أو تؤدّي إلى تقوية هذه العلوم. وقد يدخل تحصيلها في «**الفريضة العادلة**»، وقد يدخل تارة في «**السنّة القائمة**».

وإذا كان تحصيل هذه العلوم لأجل ذاتها أو لفائدة أخرى، وإذا صرفتنا عن علوم الآخرة؛ فإنّها تصبح مذمومة بالعرض؛ بسبب هذا الانحراف، وإلا فهي لا تحمل أيّ نفع أو ضرر.

«إذن تقسم كافّة العلوم إلى ثلاثة أقسام: الأولى: النافعة للإنسان بحسب أحوال النشآت الأخرى، حيث يكون غاية الخلق الوصول إليها. وهذا القسم هو الذي أطلق عليه الرسول ﷺ عنوان «العلم» وقسّمه إلى ثلاثة أقسام. والثاني: هو المضرّ للإنسان، والذي يبعده عن القيام بوظائفه الضرورية. وهذا القسم من العلوم المذمومة التي لا ينبغي للإنسان الاشتغال بها؛ كالسحر، والشعوذة، وأمثالهما. والثالث: التي ليس فيها أيّ ضرر أو نفع، كفضول الأوقات التي يقضيها الإنسان في تمضية الأوقات. ومن الأفضل أن يقوم الإنسان بتطبيق هذا القسم من العلوم مع العلوم الثلاثة، وإلا فمن الأفضل عدم الاشتغال بها،

وإلا فالإنسان العاقل يجب أن يفكّر بالعلوم النافعة بحاله فيشتغل بها ويعمل على تكميلها؛ وذلك باعتبار أنّ الأعمار قصيرة، والوقت ضيّق، والموانع والأحداث كثيرة، بحيث لا يمكنه أن يكون جامعاً لكافّة العلوم، وحائزاً على كافّة الفضائل»[1].

ويمكن توضيح رؤية الإمام الخميني قدس سره في قالب الجدول رقم ١.

خاتمة:

بناءً على رؤية الإمام الخميني قدس سره، فإنّ الإشكال الأساس الذي تعاني منه العلوم الإنسانية الغربية؛ هو: الاختزالية وتنزيل الوجود الإنساني إلى المرتبة الحيوانية وما دونها، ويؤدّي هذا الانحصار في المنهج الحسّي إلى عدم معرفة الإنسان، والغربة عن معارف الأنبياء عليهم السلام. لذلك، ومن أجل إنتاج علوم إنسانية تكون إنسانية بكلّ ما للكلمة من معنى، لا بدّ من النظر إلى «**الإنسان**» نظرة أخرى، وإدراك الجوانب والأبعاد المختلفة للإنسان من خلال الرجوع إلى الأديان الإلهية، وبالأخصّ دين الإسلام المبين، وبالتالي تصنيف العلوم من جديد على أساس معيار «**صناعة الإنسان**»، و«**كون العلم نافعاً لسعادة الإنسان**»، حيث يعتمد ذلك على معرفة وجود الإنسان، ومعرفة أودية السلوك التي تؤدّي إلى سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وفي هذه الرؤية تفقد العلوم سواء أكانت طبيعية أم غير طبيعية، صورتها الاستقلالية وتقدّم للإنسان معرفة جامعة ونافعة من خلال الوجهة التوحيدية، ومن هذا الطريق ستصبح الجامعات إسلامية، وستقدّم لنا إنساناً تمَّت تربيته بهدف تعالي الأمّة والمجتمع على المستوى المادّي والمعنوي.

(١) اقتبس هذا القسم من: زايى، نجف لك: تصنيف العلوم من وجهة نظر صدر المتألهين قدس سره والإمام الخميني قدس سره، خردنامه صدرا، ١٣٨٨هـ. ش.

الجدول رقم -١- جدول طبقات العلوم من وجهة نظر الإمام الخميني قدس سره

العلوم غير النافعة للإنسان	العلوم النافعة للإنسان		
	المعادل في الأحاديث	العلوم المتعلّقة بكل نشأة	العوالم، والنشآت، ومقامات الإنسان بشكل مجمل وكلّي.
العلوم المضرّة للإنسان التي تصرفه عن وظائفه؛ كالسحر، والشعوذة، وأمثالهما	**«الآية المحكمة»**: وهي العلوم العقلية، والعقائد الحقّة، والمعارف الإلهية.	العلم بذات الحقّ المقدّسة، ومعرفة أوصاف الجمال والجلال، والعلم بالعوالم الغيبية المجرّدة، والعلم بالأنبياء عليهم السلام والأولياء عليهم السلام ومقاماتهم ومدارجهم، والعلم بكيفية نزول الوحي، وتنزّل الملائكة والروح، والعلم بالنشأة الآخرة، وكيفية رجوع الموجودات إلى عالم الغيب، وحقيقة عالمي البرزخ والقيامة.	النشأة الآخرة، وعالم الغيب، ومقام الروحانية والعقل.
التي لا ضرر فيها ولا نفع	**«فريضة عادلة»**: هي علم الأخلاق، وتصفية القلوب.	العلم بمحاسن الأخلاق، وكيفية تحصيلها، وأسباب حصولها، ومبادئها، وشروطها، والعلم بقبائح الأخلاق، والعلم بمبادئ وجودها، وكيفية التنزّه عنها.	نشأة البرزخ، والعالم المتوسّط بين العالمين، ومقام الخيال.
	«سنّة قائمة»: هي علم الظاهر، وعلوم الآداب القالبيّة.	علم الفقه ومبادئه، وعلم آداب العشرة، وتدبير المنزل، وسياسة المدن.	نشأة الدنيا، ومقام الملك، وعالم الشهادة.